وفـــــاء

يُحكى أنَّ ملكاً مِنَ المُلوكِ كان لهُ خادمٌ عزيزٌ عليهِ وكان لِوَفائِهِ العظيمِ يسمِّيهِ « وَفاء » . فلمَّا مَرِضَ المَلِكُ ، وأَحسَّ قُربَ مَنيَّتِهِ ، ناداهُ ، وقالَ لهُ : « اسْمَعْ ياوفاء ، إنَّ أَجَلِي قد انتهى ، وأَرجو أَنْ تتعهَّدَ ولدي مِنْ بعدي ، فتقومَ بتعليمِهِ وتهذيبِهِ ، وتُخلِصَ لهُ كما أَخلَصْتَ لي » . فقالَ وفاء : « سأكونُ خادِمَهُ الأمينَ ، وأُضحِّي من أَجْلِهِ بِنَفْسي إذا دَعا الحالُ » . فقالَ المَلِكُ : « وعندَ ما يَكبرُ أُطلِعُهُ على كلِّ شيءٍ في القَصْرِ ، وعلى جميعِ خزائنِ المُلْكِ . وافتَحْ لهُ جميعَ حُجَرِ القَصْرِ المَلَكِيِّ . ولكنْ احذَرْ أَنْ يَرَى الحُجْرَةَ التي بها صورةُ الأميرةِ ابنةِ مَلِكِ القَصْرِ الذهبيِّ ، فإنَّهُ إذا رآها وَقَعَ في حُبِّ الأميرةِ ، وكان ذلكَ سَبَبَ هَلاكِهِ » .

ولمَّا ماتَ المَلِكُ ، وكَبِرَ الأميرُ ، أَطْلَعَ وَفاء مَليكَهُ الشابَّ على كلِّ ما في القَصْرِ من تُحَفٍ وذَخائِرَ . وفَتَحَ لهُ كلَّ الحُجَرِ ماعدا الحجرةَ المُعلَّقَةَ بها صورةُ الأميرةِ . ولاحظَ الملكُ أَنَّ وفاء يَمُرُّ بتلكَ الحجرةِ مِنْ غيرِ أَنْ يُخبِرَهُ عنها . فقالَ له : « ولِماذا لاتفتَحُ لي بابَ هذه الحجرةِ ؟ » فقالَ وفاء : « إنَّ فتحها يُزعِجُكَ ياسيِّدي » . فقالَ المَلِكُ : « يجبُ أَنْ أَعرِفَ ما بها . ولْتُفتَحْ في الحالِ » فقالَ وفاء : « لقد وَعَدتُ أباكَ المَلِكَ أَنْ أحذَرَ مِنْ إطلاعِكَ على هذهِ الحجرةِ ، خوفاً مِنْ أَنْ تُسبِّبَ لنا مَتاعِبَ كثيرةً » . فقالَ المَلِكُ : « إنَّكَ تُكثِرُ مَتاعِبي بِمَنْعي مِن دُخولِ هذه الحجرةِ ، ويجبُ أَنْ أَدخُلَها في الحالِ » . فلَمْ يَجِدْ وَفاء بُدّاً مِنْ إطاعةِ أَمرِ مَوْلاهُ . ولمَّا أَبصرَ المَلِكُ صورةَ الأميرةِ ، وَقَعَ مَغْشِيّاً عليهِ مِنْ شِدَّةِ تأثُّرِهِ بِجَمالِها . ولمَّا أَفاقَ قالَ : « وَلِمَنْ تكونُ هذه الصورةُ الجميلةُ ؟ » فقالَ وفاء : « إنَّها صورةُ الأميرةِ ابنةِ مَلِكِ القَصْرِ الذهبيِّ » . فقالَ المَلِكُ : « إنَّ حُبِّي لها عظيمٌ ، ولَوْ كانتْ أوراقُ جميعِ الأشجارِ ألسنةً ناطقةً لَعَجَزَتْ عَنْ وصفِ شَغَفي بها . ويجبُ أَنْ أراها ولَوْ كان في ذلكَ هَلاكي » . أمَّا وفاء فقد انزعجَ لِتَصميمِ سيِّدِهِ . فأَخَذَ يُفكِّرُ طويلاً في حيلةٍ تُنيلُ المَلِكَ ما يَشْتَهي . فقالَ : « اسْمَعْ ياموْلاي ، إنَّ الأميرةَ مُغرَمَةٌ بالذهبِ ، فكلُّ ما حَوْلَها مِنْ مَوائِدَ وكراسيَّ وأَطباقٍ وأَكوابٍ وأوانٍ وغيرِ ذلكَ مصنوعٌ مِنَ الذهبِ الخالصِ . ولا تَزالُ تَجْمَعُ كلَّ طَريفٍ مِنَ التُّحَفِ الذهبيَّةِ . فأَحْضِرْ أَمْهَرَ الصَّيّاغِ ، وقَدِّمْ لَهُمْ كلَّ ما عِندكَ مِنَ الذهبِ ، لِيَصْنَعوا منهُ الأوانيَ الجميلةَ والطُّيورَ البديعةَ وأنواعَ الحيوانِ المتنوِّعةَ والثيابَ الفاخِرَةَ ، ثم نسافِرُ مُتَخَفِّيَيْنِ في زيِّ تاجِرَيْنِ ، علَّنا نَحْصُلُ عليها » .

وهكذا أَجْرَيا على سفينةٍ مُحمَّلةٍ بهذه التُّحَفِ الذَّهَبيةِ . ولمَّا وَصلا إلى مَمْلكةِ الأميرةِ ، طَلَبَ وفاء من سيِّدِهِ أَنْ

يبقى بالسفينة، وذهب هو إلى قصرها يحمل بعض التحف ولما مثل بين يديها، أجنبتها التحف، وطلبت تبراءها جميعها. فقال وفاء إنه لا يعرف الثمن، لأنه خادم لسيده التاجر الثري، وهذه نموذج فقط، حضر ليعرضها على سموها. فقالت الأميرة: «قل لسيدك يحضر كل ما عنده من التحف». فقال: «إنها كثيرة جداً يا سيدتي ونقلها يتطلب عدة أيام». فقالت: إذن أذهب بنفسي لرؤيتها». ولما صعدت إلى ظهر السفينة، ورآها الملك كاد قلبه يطير فرحاً وسروراً، وطلب أن تتكرم بزيارة ردهة (صالة) المروضات في جوف السفينة. فنزلت معه، وبقي وفاء على سطح السفينة.

وعند ما كان الملك يعرض على الأميرة التحف واحدة فواحدة، ويحدثها طويلا عن كل منها، أمر وفاء البحارة أن يفكوا القلاع. وسارت السفينة تشق عباب اليم بسرعة هائلة، كأنها طائر يسبح في الهواء، ومر وقت طويل كانت الأميرة فيه منهمكة في تفحص التحف. فلما خرجت إلى سطح السفينة لم تر غير المياه تحيط بها من جميع الجهات. فقالت، بألم وانزعاج: «واحسرتاه! لقد اختطفني وغد من (القرصان)! فالموت أحب إلي من هذا الهوان!» فقال الملك: «عفواً يا أميرتي، فأنا لص ولا تاجر، وإنما أنا ملك كريم ابن ملك عظيم، وما أخذتك بهذه الحيلة إلا لأحبك العظيم». وقص عليها قصته من أولها إلى آخرها، فأحبته من كل قلبها مقدرة كل ما فعل من أجلها.

وذات يوم حط على مؤخر السفينة ثلاثة غربان، وكان وفاء يعرف لغة الطير، فسمع واحداً منها يقول: «ها هو الملك يقترب من تملكته بعد أن ظفر بالأميرة». فقال آخر: «كلا إنه لم يظفر بها، فعند ما يصل إلى البر سيقدمون له حصاناً عنيداً أحمر اللون، فإذا ركبه

جمع وقتله، ولا يرى عروسه بعد ذلك». فقال الغرابُ الثالث: «هذا صحيحٌ، ولكنْ إذا تقدّم أحدٌ وقتل الحِصانَ قبلَ أن يركبَهُ الملكُ، فإنه ينجو. ولكنّ القاتلَ يتحوّلُ إلى صنمٍ من الحجرِ إذا أفشى السرَّ في قتلِ الحِصان». فقال الغرابُ الثاني: «هذا صحيحٌ، ولكنْ بفرضِ حدوثِ ذلك، فإنّ المَلِكَ لا بُدَّ هالك. فحُلّةُ (بدلة) العرسِ الذهبيةِ مصنوعةٌ من موادَّ كبريتية، فإذا لبسها يحترقُ ليلةَ الزفاف» فقال الغرابُ الأوّلُ: «واحسرتاهُ ألا يُمكنُ نجاتُهُ» فقال الثاني: «نعمْ. إذا أخذَ أحدٌ الحُلّةَ قبلَ أن يلبسَها الملكُ، وقذفَ بها في النار، ولكنّ القاذفَ يتحوّلُ إلى صنمٍ من الحجرِ إذا هو أجابَ عن سببِ فعلتِه». فقال الغرابُ الأوّلُ: وإنّي أعرفُ أكثرَ من ذلك، فبعدَ حفلةِ الزفافِ سيُغمى على الأميرةِ، ويصفرُّ لونُها، وتموتُ إلاّ إذا تقدّمَ واحدٌ غيرُ الملكِ، وحملَها في الحالِ، وقبّلَها ثلاثَ قبلاتٍ، ولكن إذا باحَ بالسرِّ تحوّلَ في الحالِ إلى صنمٍ من الحجرِ من رأسِهِ إلى قدميه.» وطارتِ الغربانُ وبقيَ وفاء في سكونٍ عميقٍ وحزنٍ كبير.

ولمّا وصلوا إلى البرِّ وقعَ كلُّ ما تحدّثتْ بهِ الغربانُ، وتقدّمَ وفاء في كلِّ مرّةٍ لنجاةِ سيّدِهِ وسيّدتِهِ. ولكنّ الملكُ حَنِقَ عليهِ لتصرّفاتِهِ الشاذّةِ، وصمتِهِ البليغِ. فأمرَ الجلّادَ بقطعِ رقبتِهِ. وعند ذلك قال وفاء: «إنّي هالكٌ على كلِّ حالٍ، فاسمعْ ما أقولُ». وقصّ كلَّ ما سمعَهُ من الغربانِ، وكيفَ كانتْ تصرّفاتُهُ الشاذّةُ سبباً في نجاةِ الملكِ والملكةِ، وأنّهُ كانَ دائماً مثالَ الصدقِ والوفاء. فقالَ الملكُ «وافرحتاه! أتركوا وفاء، فقد عفونا عنه». ولكن للأسفِ، تحوّلَ وفاء في الحالِ إلى صنمٍ من الحجرِ الصلدِ فحزنَ الملكُ حزناً شديداً، ونقلَ الصنمَ إلى حجرتِهِ الخاصةِ إعزازاً وتكريماً لذكرى وفاء.

ومرّتِ السنونَ ورُزقَ الملكُ ولدين. وذاتَ يومٍ، بينما كان يلعبانِ بجانبِ تمثالِ وفاء، نظرَ الملكُ إلى التمثالِ وتنهّدَ، وقالَ: آه يا وفاء، لو كنتُ أعرفُ سبيلاً لأعيدَ إليكَ الحياةَ». وما كان أشدَّ دهشتَهُ إذ سمعَ صوتاً من داخلِ التمثالِ يقولُ: «نعمْ أيها الملكُ، إنكَ تقدرُ أنْ تُعيدَ إليَّ الحياةَ إذا ضحّيتَ بولديكَ». فصعقَ الملكُ لهذا الثمنِ الباهظِ. وأطرقَ يفكّرُ كيفَ أنّ وفاء ضحّى بنفسِهِ من أجلِهِ. ثمّ قال: «نعمْ، إنّي أضحّي بهما بكلِ ارتياح». وفي الحالِ عادتِ الحياةُ إلى التمثالِ. وقالَ وفاء: احفظ ولديكَ يا مولاي، فقد صدقتْ نيتُكَ، وإنّما الأعمالُ بالنيات». ففرحَ الملكُ فرحاً شديداً، وذهبَ إلى الملكةِ، وامتحنَها بما امتُحِنَ به. فقالتْ: «إنّي أوافقُ على تضحيةِ ولديْنا، فهذا أقلُّ ما نقدّمُهُ لوفاء، فقد ضحّى بحياتِهِ من أجلِنا. وما جزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ».

فسُرَّ الملكُ سروراً عظيماً لأنّ الملكةَ تشاطرُهُ عواطفَهُ وأفكارَهُ، وبشّرَها بما حدثَ. فجرتْ معهُ إلى حجرتِهِ. ولمّا فتحَ البابَ، جرى نحوهما الطفلانِ يتبعهما وفاء. وعاشَ الجميعُ في سرورٍ وهناءٍ مُتمتّعينَ بنعمةِ الصدقِ والوفاء.